الإسلام والفن: كيف يلتقيان؟

د. عبدالملك بو منجل- الجزائر

لا يلتقي الإسلام والفن كما يلتقي الخصم مع الخصم، ولا كما يلتقي المقدس والمدنس، ولا كما يلتقي القيد مع الحرية، ولا كما يلتقي الجد مع الهزل، ولا كما يلتقي الجلال مع الابتذال؛ ولكن كما يلتقي الكل مع الجزء، والغاية مع الوسيلة، والجمال المطلق مع الجمال النسبي، والغذاء الكامل الصالح للعقل والفكر والروح والوجدان والحس مع الغذاء الذي قد يغني الفكر، ويزوّد الروح، ويشبع الوجدان، ويمتع الحس حينا من الزمن، ولكنه قد يفعل عكس ذلك: يزوّد هذه العناصر المشكّلة للكيان الإنساني موادّ هي إلى السم المهلك أقرب منها إلى الغذاء الطيب الحيّ.

يقول فلاسفة الفن: «إن الفن هو إنتاج موضوع له صفة البقاء. أو إحداث فعل عابر سريع الزوال، يكون من شأنه توليد لذة إيجابية لدى صاحبه من جهة، وإثارة انطباعات ملائمة لدى عدد معيّن من النظّارة أو المستمعين من جهة أخرى، بغض النظر عن أي اعتبار آخر قد يقوم على المنفعة العملية أو الفائدة الشخصية.»[1] أو إنه «ضربٌ من النشاط البشري الذي يتمثل في قيام الإنسان بتوصيل عواطفه إلى الآخرين، بطريقة شعورية إرادية، مستعملا في ذلك بعض العلامات الخارجية.»[2] أو «إن الفن هو التأمل. هو متعة العقل الذي ينفذ إلى صميم الطبيعة ويستكشف ما فيها من عقل يبعث فيها الحياة. هو فرحة الذكاء البشري حين ينفذ بأبصاره إلى أعماق الكون، لكي يعيد خلقه مرسلا عليه أضواء من الشعور. الفن هو أسمى رسالة

للإنسان، لأنه مظهر لنشاط الفكر الذي يحاول أن يتفهم العالم وأن يعيننا نحن بدورنا على أن نفهمه.»[٣]

الجدوى من الفن إذاً هي اللذة والمتعة، والفرح والبهجة، والتعبير والتواصل، والاكتشاف والمعرفة، والخلاص من رتابة الواقع والتحرر من سلطة المادة. وإذا كان الأمر كذلك، فكيف لا يلتقي الفن مع الدين عموما، ومع الإسلام على وجه الخصوص؟

إن الدين والفن يسيران بالإنسان في طريق واحد هو طريق المتعة والبهجة والحرية والجمال، والمعرفة والرقة والرفعة والكمال. نعم؛ قد يُجحفُ بعض الفن في حق الدين، وقد ينزل بعض الفن عن سمو الغاية وكبرياء الجلال وإشراق الجمال، ولكن الدين الإسلامي تحديدا لا يمكن إلا أن يكون نصيرا للفن، مَعينا للجمال، أفقا للحرية، فضاءً لإبداعٍ فنيٍّ يتجاوب فيه الجمال النسبي مع الجمال المطلق، ويتعانق فيه جمال الحق مع جمال الخير مع جمال الجمال. ولكن لهذا الإجمال تفصيلا نبينه في هذه الوقفات:

◁◁ كلاهما يُنشد الجمال، وجمال الإسلام أشمل وأرقى

الفن مهارةٌ بشرية في صناعة الجمال، وكل فنٍّ لا يستهدف هذه الصناعة أو لا يقدر على إنتاج الجمال فهو ليس بفن.

صحيحٌ أن فلاسفة الفن مختلفون بشأن وظيفة الفن: أمحصورةٌ هي في إثارة المتعة الجمالية، أم هي تتوسل بالمتعة الجمالية إلى غايات أخرى عاطفية واجتماعية وأخلاقية ودينية ومعرفية؛ ولكن المحصّل في النهاية أن الجمال مطلبٌ أساسٌ في الفن، لا يُستَغنى عنه فيه إلا إذا استُغنيَ عن الفن ذاته. فأيُّ شيءٍ هو هذا الجمال الذي هو مطلب الفن، ونزعم أنه مطلب من مطالب الإسلام أيضا؟

الفلاسفة مختلفون كذلك في تحديد مفهوم الجميل. بعضهم يرى أن الجميل هو غير النافع وغير الشهيّ، وغير الذي يحقق لنا غرضا عمليا ماديا أو اجتماعيا من أغراض المعيشة ومطامع النفس. ولكنهم مختلفون فيما إذا كان الجميل منحصرا في الشكل والصورة، أو فيما نرى ونسمع ونحس، أو هو يتعدى ذلك إلى العاطفة والشعور، والفكرة والسلوك، وإلى حركة العقل واختلاجة الروح؟

وإذا كان من المتعذر جمع الناس على رأيٍ واحدٍ في تعريف الجميل؛ بل من المتعذّر على فلاسفة الجمال تحديد مفهوم دقيق لمصطلح «الجميل»، فإن ذلك لا يمنع من الاعتقاد أن الجمالَ هو صفة موضوعية تُدرَك بحاسة الذوق مستعينةً بحواسَّ أخرى كالسمع والبصر، وبمصادرَ شعورية وإدراكية أخرى كالوجدان والعقل، بحسب طبيعة هذا الجميل ومادته وشكله. وأن علامةَ هذا الجمال، وإنْ عجز أكثر الناس عن تعليله وتحليله، هي الأثر الخاص الذي يتركه في نفس متلقيه؛ من إعجابٍ أو انشراحٍ أو بهجةٍ أو رضاً أو لذةٍ غيرِ مشوبةٍ بمنفعة مادية. وأنّ من أسرار هذا الجمال المولّد لهذه المشاعر والأحاسيس خصائصَ تطّردُ في كل جميلٍ هي الانسجام (أو التناسب)، والإثارة (أو الجدة والغرابة)، والحيوية (أو الرشاقة والخصوبة)[٤]. وأن الخاصية العامة لكل جميل هي الجاذبية، دون أن يعني ذلك أن كل جاذبية مصدرُها الجمال.

إن الفنّ يُعوِّل في تعامله معنا على هذه الجاذبية التي مصدرُها الجمال. وإن كل فنٍّ يُقدَّرُ له النجاح هو فنٌّ استوفى خصائص الانسجام والإثارة والحيوية. وإن الذي نريد أن نقف عنده الآن هو السؤال عن هذه الخصائص وتلك الجاذبية: أمحصورةٌ هي في الشكل والصورة والبنية، أم ساريةٌ في كيان الوجود كله، ما يُرى منه ويُسمَع ويُحَسّ، وما يُدرَك بالعقل، ويُفهَم بالروح، ويُقرَأ بالوجدان، ويُبصَر بالحدس؟

ثم السؤال عن موقف الإسلام من الجمال: أيحتقره ويزدريه، أو يُهمله ويزهد فيه، أم ينشده ويصطفيه، ويُكرمه ويدعو إليه؟

من نافلة القول أن نعيد التذكير بأنّ «الله جميلٌ يُحبُّ الجمال». وأن الله قد أبدع الكونَ على أكمل ما يكون من الجمال والجلال، وأنه خاطب الناس بأجمل ما يكون من الخطاب، وأنّ ذلك جميعَه لا يدلّ إلا على أن الجمال هو في صميم حكمة الله وإرادته ومشيئته، وأن الإسلام هو أحد مجالي هذا الجمال الفائض على الكون بإرادة الله، وأن العلاقة بين الإسلام والجمال لن تكون إلا كالعلاقة التي تكون بين موجودين يصدران من مشكاة واحدةٍ ويُسقيان من ماء واحد، وإن اختلف الشكل واللون. ولكنا نحب أن نفصل بعض التفصيل، كي نقيم الدليل على أن الإسلام لا يلتقي مع الفن في نشدان الجمال فحسب، بل ينشد صورةً للجمال هي أكمل وأرقى من الصورة التي يبرزها الفن.

يقول عماد الدين خليل:

«والله سبحانه الذي أتقن كل شيء.. يضع قبالة المعطيات الجمالية في الكون والعالم والطبيعة والحياة، أجهزة الاستقبال التي تعرف كيف تتلقاها وتتعامل معها، فتنقل الإنسان إلى مراحل أكثر نضجا واكتمالا على مستوى السوية الفردية، والإبداع الحضاري، ويكون الجمال قد حقق وظيفته !!

إن السمع والبصر والذوق والشم.. لهي تلك الأجهزة التي (تتلقى) فتنقل معطياتها إلى العقل، لكي يفرز ويمحص، وإلى القلب والوجدان، لكي تنفعل وتتأثر.. ومن وراء هذا وذاك تكون الدهشة والإعجاب، ثم يكون (التعبير) الذي يبدع فيهز العقل والقلب والوجدان.»[٥]

كل شيء إذاً، استنادا على هذا التصور الإسلامي، ينفتح على الجمال ويُغري به ويدعو إليه: الكون بعالميه:

الظاهر الذي في المَشاهد، والباطن الذي في المشاعر. والكيان الإنساني بجانبيه؛ الحسي الذي في الحواس، والنفسي الذي في القلب والروح. يتلقى الكائن البشري الجمال، فيمتلئ إعجابا، ويختلج اعتبارا، وقد ينبجس إبداعا بألوانٍ من الفنّ الرفيع، يتعانق فيه جمال الصورة، مع جمال الفكرة، مع جمال الشعور.

والجمال الذي بثه الله في الكون كله، ظاهره وخفيّه، ليس ضرورةً فحسب، بل هو فوق الضرورة، وليس بفوضى ولكنه نظام له مظاهره وقوانينه. يقول محمد قطب:

«وأول ما يلفت الحس في الجمال كما أسلفنا أنه «نظام» ولكنه ليس «ضرورة».. ولهذا النظام – كما يبدو في صفحة الكون- مظاهر متعددة، منها الدقة. والتناسق. والتوازن. وخفة الحركة رغم ثقلة الأوزان.»[٦]

وهذه المظاهر والقوانين الجمالية ليست محصورة في الوجود الماديّ، بل هي شائعة في الوجود كلّه، وتشمل بعمومها الحياة الإنسانية بكل ما يضطرب فيها من أشكال وأوضاع ومشاعرَ وأفكار. وهنا ينفتح للجمال في الإسلام، وفي الفن الذي يعبر عن التصور الإسلامي، مجال للرقي والاكتمال لا ينفتح لغيره.

الجمالُ «جوهر أصيلٌ في الدين، تفيض أنواره من كل حقائقه الإيمانية والتشريعية»[٧] والإسلام يحتفي بالجمال أكرم الاحتفاء، ويغري به الأتباع أبلغَ الإغراء؛ ولكنه لا ينظر إليه أجزاءً ممزقة ليس بينها تناسق وتوازن وترابط، بل ينظر إليه متكاملا يضمن للحياة الإنسانية ما يليق بها من الرفعة والكرامة.

انظر، على سبيل المثال، إلى قول امرئ القيس يصف جانبا من مغامراته الفاحشة:

إذا ما بكى من خَلْفِها انصَرَفَتْ لهُ
بشِقٍّ، وتَحْتي شِقُّها لمْ يُحَوَّلِ[٨]

هذا بيتٌ جميل الشكل، حسنُ العبارة، مُتقَنُ البناء، فيه رشاقةٌ وإثارة. هو إذاً جميلٌ بالمقاييس الشكلية الصرف. ولكن الإنسان يتلقى القطعة الفنية بكيانه الإنسانيِّ كلِّه. بسمعه وبصره، وخياله وشعوره، وفكره وقيمه، وروحه ووجدانه. وقد يكون قارئ هذا البيت غافلا عن معاني النفس، أو عاريا عن مكارم الأخلاق، أو خاليا من مشاغل الروح، فيطرب لهذا البيت أيما طربٍ، وقد يصفق نشوةً وإعجابا بهذا البطل الهمام! ولكن يكفي أن تقول له: تصوّر أن هذه المنصرفة بشقٍّ إلى ابنها الباكي هي أختك، لينقلب طربُه غضبا، ونشوتُه مرارةً، وإعجابُه نقمةً واحتقارا. هذا هو الجانب الآخر من الصورة المشرقة الجميلة: الجانب المُظلم المنفّر القبيح، الذي يلتفت إليه قومٌ ويغفل عنه آخرون، وكلُّ إناءٍ بما فيه ينضح.

وانظر إلى قول أبي نواس يعبّر عن تعلقه بالخمرة:

يا مَنْ يلومُ على حَمْراءَ صافيَةٍ!
صِرْ في الجِنانِ، وَدَعْني أَسْكُنُ النارا[٩]

لقد أجاد حقا في تصوير شعوره، والتعبير عن مكنون قلبه. وقد جاء بأسلوبٍ رشيقٍ ومعنى طريف. وقد وفّر لبيته قدراً من الجمال المثير لا يُنكَر. ولكنّ الجمالَ الذي يدعو إليه الإسلام ويحتفي به يتجاوز هذا القدر إلى جمال الفكرة وجمال الشعور. فهل فكرةُ التضحية بالجنان في سبيل الخمرة هي فكرةٌ جميلة، وهل شعورُ الاضطرار إلى معانقةِ الخمرة هو شعورٌ لطيف؟

انظر كذلك، إن شئتَ، إلى تمثال منحوتٍ لامرأة عارية، أو رقصةٍ فنية لامرأة شبه عارية: ستكون أمام مشهدٍ فاتن الجمال ولا شكّ؛ فقد خلق الله الإنسانَ جميلا غايةً في الجمال، وخلقَ أنثاهُ أفتنَ جمالاً وأكثرَ إبهاجا للحس والنفس. ولكن، أستكون أمام فنٍّ رفيع متكامل الجمال: فهو يثير أحاسيسَ جميلةً، وهو يهزُّ مشاعرَ نبيلةً، وهو يسمو بالروح إلى بهجةٍ عبقرية؛ أم ستكون أمام جمالٍ ليس لعارضه فضلُ إبداعه فهو إبداعٌ من الله، ولكنّ له فضلَ تقليده وعرضه، جامدا في حال التمثال، أو متحركا في حال الرقص، ليكون من هذا العرض الفاتن إثارةُ غرائزَ سفلية، وتحريكُ شهواتٍ جسدية؛ ولا تلتفتْ إلى من يزعمُ أنه يستمتع بالجمال المحض لوجه الجمال.

من قديم كان الفلاسفة يؤمنون بأن الجمال لا ينحصر في الصورة، ولا يكتمل إلا بجمالٍ وراء الشكل والصورة. فقد تساءل سقراط: «أيمكن ألا ينطوي هذا الجمال الساحر على نفس تناسبه جمالا وخيرا؟»[١٠] وقد وصف أفلاطون الجمال بأنه «الجوهر غير ذي اللون والشكل الذي لا يمكن للحس أن يدركه، الجوهر الموجود بالحقيقة، ولا يكون مرئيا إلا لعين النفس.»[١١] وإنما انصرفت الفلسفة الغربية الحديثة بعض

الانصراف عن هذا المذهب في تصور الجمال، وتصور وظيفة الفن، لأسباب غير صحية[١٢]. ومع ذلك مازال في أهل الفكر والفن من يؤمن بصلة الفن بالدين، وصلة الجمال بالأخلاق.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن الفنّ وإن ظلّ ينشد الجمالَ فإنه كثيرا ما كان يُخطئه ليسقط في القبح. وإن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يُهيِّئ للفنّ أن يجمع الجمال بأطرافه كلِّها، وألوانه جميعِها، ويحفظَ الجمال من أن يتشوّه باسم الجمال، ويصونَ الحياةَ من أن تفسد وتنحط باسم الحياة.

كلاهما غذاءٌ للوجدان، وغذاء الإسلام أغنى وأصفى

وظيفة الفن ليست محصورةً في الإمتاع الجمالي الخالص الذي يمتع الحس ويطرب النفس. ولكنها تتعدى ذلك إلى وظائفَ أخرى، قد يقصدها الفنانون وقد لا يقصدونها، وهي التعبير والتنفيس والتهذيب والتأمل وإبداع المعرفة وترقية الحياة.

الفنّ نشاطٌ بشريٌّ جماليٌّ وجدانيٌّ معرفيٌّ تواصليٌّ إمتاعيٌّ يُخرج الإنسان من رتابة الحياة إلى متعة الإحساس، ومن ثقل المادة إلى خفة الروح، ومن وطأة المشاغل العملية إلى بهجة التجربة العاطفية، ومن ضيق الحاجات الحسية الأرضية إلى سعة الآفاق المعرفية والأشواق الروحية والرفرفات الشعورية.

الفنّ الرفيع هو الفن الذي يُسهم في تحقيق هذه الأهداف قصدَها أم لم يقصدّها. يخرج الإنسانية من البلادة إلى الإحساس، ومن الغلظة إلى الرقة، ومن النكد إلى البهجة، ومن الجهل إلى المعرفة، ومن القيد إلى الحرية، ومن المادية أو الحيوانية إلى الإنسانية.

وقد تصوّر أفلاطون جمهوريته الفاضلة السعيدة، فرأى الشعراء عائقا في سبيل السعادة فأخرجَهم منها، وكان له في الشعر آراء أخطأ في بعضها وأصاب في أخرى، ولكن الشعراء وفلاسفة الفن ضخموا خطأه وتناسوا صوابَه، وفي صوابه الكثير من الحق والكثير من الخير للبشرية لو يعلمون.

قال: إنّ اللذة الحسية ليست كافية لتبرير الفن، وإنما ينبغي أن نبحث دور الفن في النمط الكامل للوجود. وإن الذين يدافعون عن الشعر ينبغي لهم أن يثبتوا أنه مفيد للمجتمع وللحياة البشرية علاوة على كونه مصدرا للذة[١٣]، وأن قدرته على منحنا اللذة تزيد من خطورته لأن تأثيره فينا سيكون أعظم. وقال بصراحة: إن الشعر يثير الجزء الخسيس من النفس ويغذيه، فيهدم بذلك الجزء الأفضل، ويغرس نظاما شريرا في نفس كل فرد بإرضائه القسم العديم الحس[١٤]. ومع أنّ نظرته إلى الشعر يشوبها كثيرٌ من المبالغة والتحكم وإهمال الأثر النفسي الإيجابي في عواطف الناس، فإنّ أفلاطون كان ينتقد الشعراء بدافع الحرص على القيمة الجمالية للحياة في وجودها الشامل. كان «يدافع عن طريقة كاملة في الحياة تتصف بالقيمة الجمالية. فمواطنو الجمهورية سيعيشون في بيئة يغمرها التناسق والانسجام. وفي هذه البيئة لا تقتصر السمات الجمالية على ما نسميه «بالفنون الجميلة»، بل إن من الممكن غرس هذه السمات الجمالية في كل شيء «في فن التصوير وفي كل فن إبداعي آخر كالنسج والتطريز والعمارة وصنع الأثاث»، وعلى حكام الدولة ألا يسمحوا بالرذيلة، وبالتهور، والوضاعة، والخشونة في أي إنتاج للقريحة البشرية.»[١٥]

وإذا كان ستولنيتز يختم إنصافَه هذا لموقف أفلاطون بقوله: «والحق أن من واجبنا، قبل أن نصدر حكمنا على أفلاطون، أن نتريث ونتذكر كلَّ ما هو مهوّش و«مزيّف» في فن «الإعلان»، وفي

الأدوات اليومية التي يستخدمها الناس في مجتمعنا الحديث»[١٦]، فإن موقفنا سيزداد إنصافا حين نرى كثيرا من الفنون الحديثة في زمننا الراهن تروّج للقبح أكثر من ترويجها للجمال. وتخاطب الغرائز أكثر من مخاطبتها للوجدان. وتعمل، واعيةً أو غير واعيةٍ، على إفساد الذوق وتحطيم الإنسان أكثر من عملها على ترقية الذوق وتهذيب الروح.

ومع ذلك فإنّ الفنّ، أيّا يكن هدفه ومضمونه، هو غذاءٌ للوجدان، وشفاءٌ لبعض أمراضنا النفسية، وإنقاذٌ لنا من وطأة المادة، وإغناءٌ لحياتنا الرتيبة بحياةٍ لها لونٌ وطعمٌ وحركةٌ وبهجة، وتحويلٌ لنا من كائنٍ يعيش إلى كائنٍ يحيا. وقد نبّه أحد فلاسفة الفن على القيمة الجوهرية للتجربة الجمالية، مؤيدا رؤيته هذه بعبارة لأحد الشعراء يقول فيها:

«حياتُنا، لو امتلأتْ بالمَشاغِل، ولمْ تَتْرُكْ لنا وقتاً للتوقُّفِ والتأمُّل، لكانتْ حياةً هزيلةً بحق.»[١٧]

ونحبّ أن نأخذ بطرف هذا الحديث عن الحياة التي تكون هزيلةً إذا خلت من التوقف والتأمل، لنصل موضوع علاقة الفن بالوجدان والروح بموضوع علاقة الإسلام بهذين وبالفن تبعا لذلك؛ فإنه ما من دين، وما من منهج للحياة، هو في مستوى الإسلام ترقيةً للحياة، وتغذيةً للوجدان، وتهذيبا للروح، وتحريرا للإنسان من رتابة العادة ووطأة المادة وقهر الضرورة، وتحذيرا للقلب من الغفلة عن حقائق الوجود وعبَر الآيات وأسرار الحياة: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (الحج:٤٦). «وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» (يوسف:١٠٥)، «انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ» (الأنعام:٩٩)، «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ» (عبس:٢٤)، «وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ» (النحل:٦).

ولا نحب أن نستفيض في أمرٍ هو عند الواعين بجوهر الإسلام من البدهيات، ولكنا نشير إلى أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، ورسالةَ الإسلام هو خطاب جماليٌّ وجدانيٌّ معرفيٌّ بامتياز، وهو غذاءٌ نفسيٌّ وروحيٌّ وعقليٌّ بإعجاز، وأن منهج القرآن في تربية الروح وتجديد الشعور وترقية الإحساس هو منهجٌ عجيبٌ فذٌّ، وهو فنٌّ في تغذية الوجدان وتهذيب الروح لا يضارعه فنّ.

كلاهما حريةٌ وانطلاق، وحرية الإسلام أمتعُ وأوفى

ربما قال قائل: ولكن الفنَّ حريةٌ والإسلامَ قيد، الفنّ انطلاقٌ والإسلام التزام. الفنّ هيامٌ في كل واد والإسلام هذا حلالٌ وهذا حرام. كيف يلتقيان إذاً.. وكيف يتفاهمان؟

وهذا فهمٌ للفنِّ وللإسلامِ غير صحيحٍ وغير دقيق.

الفنّ حرّيَّةٌ والإسلام حريةٌ كذلك. الإسلامُ التزامٌ والفنّ التزامٌ كذلك. الفنّ هيامٌ في كل واد في سبيل التعبير والجمال والمتعة، والإسلام انطلاقٌ في كل اتجاهٍ وسياحةٌ في كل فضاءٍ، في سبيل التعبير والجمال والبهجة والمعرفة والمتعة.

أيةُ حريةٍ مكفولةٌ في الفن وممنوعة في الإسلام؟

أحرية التعبير؟ وأيُّ فكرة أو شعور أو خاطرٍ يُمنَع على المسلم التعبير عنه، حتى ولو كان وسوسةً شيطانٍ، إلا أن يكونَ في ذلك نيلٌ من الأعراض، أو تطاولٌ على الله والأنبياء، أو تحريضٌ على الجرم والفاحشة؛ وليس ذلك من الفنّ الحقيقي في شيء؛ لأنّ الفن ارتفاعٌ في الذوق، ونبلٌ في المشاعر؛ والوقاحةُ

مع الله، والاعتداء على الأعراض، والترويج للفاحشة، ليس من الذوق السليم والشعور النبيل في شيء.

أحريةُ التفكير؟ وكيف يقيّد الإسلامُ التفكيرَ وهو يدعو إليه، ويحرّض عليه، ويجعله طريقا إلى المعرفة والعبرة والجمال والمتعة؛ بالمعنى الواسع الرفيع للجمال وللمتعة؟:

«قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ» (الأنعام:٥٠)، «أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» (محمد:٢٤)، «أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ» (الأعراف:١٨٥).

وكثيرا ما يقال: إن الفنان الحقَّ يحب أن يتميّز، أن يبدع، أن يفكّر على نحوٍ مختلف، أن يكتشف نهجا جديدا، ويرى رؤية جديدة، ويخط فلسفةً جديدة، وأن ينظر إلى الكون بمنظار جديد. فما أروعَ ذلك! وما أجملَ أن يكون الفنان المسلم كذلك! إنّ الإسلام يدعو إلى الاجتهاد، والتجديد، والتنويع، وينبذ أن ينظرَ أحدُنا بعين غيره، ويشعرَ أو يعقِل بقلبِ سواه:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» (البقرة:١٧٠)، «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا» (الكهف:٥٤)

لقد عاب القرآن على مقلدي آبائهم، فكيف يمنع الفنان من التفكير الحر والإبداع الأصيل؟ وقد نوّع الله في قرآنه ألوان الخطاب وأنواع التمثيل، فكيف لا يقبل من الفنان ذلك، وهو أدعى إلى خدمة الحق والخير والجمال، وأنجع في تنمية الفكر والذوق والخيال؟

إنّ اللون الوحيد من الفنّ الذي لا يرحّب به الإسلام، بل ينبذه، ويضيّق عليه، ويحرّمه أحيانا،

هو الفنّ المنحطّ ذوقا وخلقا وفكرا، أو الفنّ الذي يترك أرضَ الله واسعةً جميلةً نظيفةً، ويطلب أن تتاح له حريةُ النبشِ في القمامات، والخوض في المستنقعات، والنهش في الأعراض والحرمات!

وهذا اللون من الفنّ هو أقلّ الفنون حظا من الجمال وحقا في الانتساب إلى الفن. وليس الإسلام فقط من ينبذه ويضيّق عليه، بل كل فلسفة للحياة، ومنظومة للقيم، ومؤسسة راعية للحقوق، تفعل ذلك. يقول جيروم ستولنيتز:

«الواقع أن الإشراف الأخلاقي على الحياة يشمل النظم الاجتماعية الكبرى. ألسنا نعتقد، في عصرنا هذا، أن الزواج والحياة العائلية، وأحوال العمل والنظام التعليمي، تخضع لقدر معيّن على الأقل من الإشراف الاجتماعي؟ وإذن، فلمَ لا يخضع الفن بدوره؟ ولماذا يكون للفنّ امتيازٌ خاص لا يناله أي نظام آخر؟ إن الأمر كما يعبّر عنه أفلاطون قرب نهاية محاورة الجمهورية، هو أن «الأمر خطير حقا، وهو أخطر مما يتصوره معظم الناس. فعليه يتوقف تحول الإنسان إلى الخير أو إلى الشر. ومن هنا فإن من واجبنا أن نقاوم إغراء الشعراء، مثلما نقاوم إغراء المال أو الحياة أو الشهرة، إذا ما حضّنا على إغفال العدالة والفضيلة».»[١٨]

نذكر أفلاطون في هذا السياق مع التنبيه على الفارق الواسع بين التصور الإسلامي للفن وتصور أفلاطون، وأن الحرية التي يتمتع بها الفن في الإسلام هي أوسع بكثير من الحرية التي يتمتع بها في أية فلسفة للحياة أو منظومة للقيم. ويكفي للدلالة على ذلك، من الناحية العملية، أن النبي صلى الله عليه وسلم عفا عمن كان أهدر دمه، بقصيدة كتبها يعتذر. وأجاز له أن يقرأ القصيدة في المسجد محلِّ العبادة لا التغني؛ بل أجازه على هذه القصيدة بأن خلع عليه بردته الشريفة صلى الله عليه وسلم. مع أن القصيدة افتتحت، على عادة الشعراء عصرئذ، بغزلٍ بامرأة مسماة.

ولا يستقيم أن يُلتَفتَ إلى سجن عمر بن الخطاب رضي الله عنه للحطيئة بسبب شعره، فإنما كان ذلك في الحقيقة بسبب تعديه على أعراض الناس بالهجاء وليس بسبب الشعر ذاته؛ وليس الشاعر بمنجاة من المحاسبة لا يسأل عما يفعل، وإنما هو مثل سائر الناس، له ما لهم، وعليه ما عليهم.

وكثيرون يتصورون الإسلامَ رقيبا واقفا على رؤوس الناس، يقول لهم: افعلوا ولا تفعلوا، واحرصوا واجتنبوا واحذروا. وأن الفنان إذا أخضع ضميرَه لتعاليم الإسلام وقف جامدا حذرا تنكمش فيه روح الإبداع، وتنطفئ في قلبه جذوة الفن؛ فلا يكون إلا فنانا من الدرجة الثانية أو الثالثة، يكتفي بالتقليد، ويستغرق فنُّه في الوعظ والدعوة ونصرة الدين. ولا فنّ حيث تكون الرقابة والإلزام، وإنما الفن حرية وانطلاق وإبداع.

وليس الأمر في حقيقته كما يتوهمون؛ فإن الإسلام لا يفرض على الفن شيئا سوى ما أسلفنا ذكره من ترك الاعتداء على الأعراض، والوقاحة مع الله، والتحريض على الجرم والفاحشة. وأما ما سوى ذلك فهو مباح إن لم يكن مستحبا. والأمر متروكٌ لاختيار الفنان وموهبته ومذهبه في الحياة ومزاجه في الشعور والتفكير، وإلى مدى تشربه لروح الإسلام واستغراقه في مُثُله وقضاياه: إن شاء أن يقصر فنه على التعبير عن تجاربه الشخصية فله ذلك، وإن شاء أن يجعلَه تعبيرا عن المشاغل والتجارب الإنسانية الكبرى، الخاصة بقومه، أو المتعلقة بالكون بأسره، فله ذلك، بالتزامه الحر لا بإلزام. يقول عماد الدين خليل:

«إنه يتوجب أن يكون الالتزام عفويا، متساوقا، منسابا.. وألا تقوم علاقته بالإبداع الفني على القسر والتكلف والإكراه، وألا يعترف بالمدرسية أو التقريرية أو المباشرة.. علاقة عفوية متدفقة.. تذكرنا بعلاقة العيون الزرقاء بما تتدفق به على حقول الربيع العطشى من مات فرات.. بعلاقة التربة الطينية الخصبة الحمراء، بما تغطي به وجه الأرض من بحار لا حدود لها من السنابل الخضر.. بعلاقة البحر الهادئ والريح الرخاء بالمراكب التي تبحر بهدوء فجر كل يوم صوب ما قسم الله لها من أرزاق.

ومن قال: إنّ الأديب المسلم ليس هو هذه العين المائية، أو هذا الحقل الأخضر، أو ذاك البحر الهادئ، وتلك الريح؟ ومن قال: إنه ليس تلك الشمس، أو ذلك القمر؟

ومن قال: إن قصائده وقصصه ومسرحياته وملاحمه لا تتفجر عنه، عن قلبه وعقله ووجدانه وأعصابه وروحه، تماما كما تتفجر المياه من العيون، والسنابل من الحقل، والأشعة من الشمس، والأحلام من القمر؟! أليس هو والطبيعة من مخلوقات الله؟»[19]

إنّ الإسلام يربي أبناءه على الحرية، ويدعو الناس جميعا إلى الاستمتاع بهذه الحرية الواسعة التي وُلدوا بها فليس لأحدٍ أن يسلبهم إياها. ومن الحرية أن يأمن الناس على أعراضهم، وأن يسلم المجتمع من شيوع الجرائم والفواحش. ومن الحرية أن يتحرر الفنان من التبعية لغيره، ومن إخضاع فنه لغرائزه السفلية أو لأهوائه ومطامعه الدنيوية. ولا مذهبَ في الحياة يدعوه إلى الاستمتاع بهذا القدر من الحرية غير الإسلام ■

الهوامش:

(١) القول للفيلسوف الإنجليزي سلي Sully. ينظر: إبراهيم، زكريا. مشكلة الفن، مكتبة مصر، د.ت، ص١٣.

(٢) القول للروائي الروسي تولستوي Tolstoi. ينظر: المرجع السابق، ص١٤.

(٣) القول للمثّال الفرنسي رودان Rodan. ينظر: المرجع السابق، ص١٦-١٧.

(٤) ينظر: ستولنيتز، جيروم. النقد الفني؛ دراسة جمالية وفلسفية، ترجمة فؤاد زكريا، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، ١٩٨١، ص٣٧-٤٧.

(٥) خليل، عماد الدين. مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي، دمشق-بيروت: دار ابن كثير، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، ص٤٠.

(٦) قطب، محمد. منهج الفن الإسلامي، مرجع سابق، ص١٢٨.

(٧) الأنصاري، فريد. جمالية الدين، القاهرة: دار السلام، ط٢، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، ص١٣.

(٨) ديوان امرئ القيس، شرحه واعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، بيروت: دار المعرفة، ط٢، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ص٣١.

(٩) ديوان أبي نواس، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٩٨هـ-١٩٧٩م، ص٢٥٣..

(١٠) ينظر: مطر، أميرة حلمي. فلسفة الجمال: أعلامها ومذاهبها، القاهرة: دار قباء للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٨، ص٣١.

(١١) ينظر: المرجع السابق، ص٤٣.

(١٢) ينظر ما ذكره جيروم ستولنيتز في كتابه النقد الجمالي: ص٣٩-٤١ من أسباب لهذا التحول لمكانة الفن في الحياة وانقطاع صلته بعالم الحقائق والمعارف.

(١٣) ينظر: أفلاطون. جمهورية أفلاطون، ترجمة حنا خباز، بيروت: دار الأندلس، د.ت، ص٤٤٢.

(١٤) ينظر: المرجع السابق، ص٤٣٩.

(١٥) ستولنيتز، جيروم. النقد الفني، مرجع سابق، ص٥١٦-٥١٧.

(١٦) المرجع السابق، ص٥١٧.

(١٧) المرجع السابق، ص٥٨.

(١٨) ستولنيتز، جيروم. النقد الفني، ص٥١٨-٥١٩.

(١٩) خليل، عماد الدين. مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي، مرجع سابق، ص٨٠-٨١.